تشنشن

بقلم : لويجي بيراندللو
ترجمة : مرجيت عبد الفتاح

جلس الكلب في هدوء على رجليه الخلفيتين أمام الباب المغلق في انتظار أن يفتح هذا الباب . ومن حين الى آخر كان يرفع مخالب رجليه ويحاول فتح الباب . ومن حين الى آخر ايضا كان يطلق عواء حافتا .

وعندما عاد تشنشن من المدرسة ، وهو يلف كفه في خرام يعلقه على كتفه ، وجد الكلب مايزال جالسا هناك في الشارع . وتصايق الصبي لهذا الانتظار الطويل وركل الكلب . ثم انه ركل الباب بقوة وهو يعرف انه موصد وانه لا يوجد أحد في البيت . وأخيرا رمى الباب بكتفه كما لو أنه يتوقع أن تدخل منه الكلب وتستقر على الأرض داخل البيت . ولكن الكلب ارتدت اليه ثانية بنفس القوة التي دفعها بها . ودهش الصبي كما لو ان الباب يلعب معه ، ودفع بالكتب مرة أخرى اليه . وحينئذ ـ ولأن هناك ثلاثة يلعبون تشنشن والباب والكتب ، أراد الكلب أيضا أن يشاركهم اللعب .

وتوقف الناس لينظروا الى هذا الذي يحدث . وابتسم قليل منهم رغما عن أنفسهم لسخافة اللعبة وبسبب الفرحة التي كان يشعر بها الكلب . أما الآخرون فكانوا يشعرون بالحنق لأن كتبا غالية الثمن تعامل هكذا دون ادنى اهتمام او مبالاة . وعلى الفور نهب تشنشن من اللعبة والقى بكتبه على الأرض . ثم ترك جسمه يترل ببطء ـ وهو يحتك بظهره في الحائط ـ على الأرض . وأراد أن يجلس على الكتب ولكنها ارتفعت من تحته ووجد نفسه يجلس على الأرض مباشرة . ثم تطلع حوله في عبوس ابله على حين كان الكلب يقفز من هنا وهناك وهو ينظر اليه .

كان يمكن أن نعرف مدى الألم الذي يشعر به الصبي في هذه الخصلة من الشعر الذي يلون التين والتي تهدلت على جبهته ، وأيضا في عيونه الحمراء التي كانت توحي بحريق غريب . لقد كان في السن الحرجة في حياته أبله حشن الضبع . ولأنه نسي المنديل عندما عاد الى المدرسة بعد الظهر فقد اضطر أن يجلس على الأرض مباشرة وهو يجيف . وساقاه الطويلتان في حالة عرى لأنه مايزال يرتدي البنطلون القصير بالرغم من أنه تعدى السن التي يرتدي فيها هذه السراويل القصيرة . وكانت ركبتاه ترتفعان حتى مستوى وجهه . لم تكن الأحذية ستستر وتميس في رجليه طويلا فقد كان يسيء معاملتها . وهكذا فان الحذاء الذي كان يضم قدميه كان في حالة من البلى .

وسمر بالصجر . كان في حالة ضيق شديدة . ثم أخذ يغط في النوم وهو يحتضن ركبتيه . وفجأة سحب ظهره على الحائط مرة أخرى وانتصب واقفا. وقفز الكلب مترقبا شيئا . الى أين سنمضي ؟ لابد أننا سنمشي في الحقول . ربما لنحصل على ثمرتين من التين أو التفاح ؟ ولم يكن تشستي متأكدا بعد مما سوف يفعل . وفي فتور وتراخ ربط كتبه ووضعها على كتفه .

وكان الطريق المعبد المرصوف ينتهي الى مابعد منزله حيث يبدأ الطريق القذر . كان هذا الطريق يؤدي الى أعماق الريف المنبسط الواسع . ما أعجب الأحاسيس التي تشعر بها عندما تركب عربة ثم تشعر بحوافر الحصان وعجلات العربة تنتقل من الطريق المعبد الى الطريق الهش القذر الصامت . وقد شمه هذا المدرس الذي يكاد ينفجر من الحيط ثم تراه فجأة يتحدث بهدوء وصوت رقيق . ومن ثم تحف حدة الخوف من العقاب . لكي تمضي الى الريف الشاسع المنبسط يجب أن تتبع الطريق القذر حتى يتسع في الميدان الصغير في مشارف المدينة وكان هناك مستشفى قد بني حديثا . وكانت جدرانه التي طليت حديثا بالطين الأبيض ماتزال تتألق حتى أنها تبهر نظره والشمس ساطعة .

وكان كل المرضى قد انتقلوا حديثا من المستشفى القديم في عربات الاسعاف وعلى النقالات . وكانت عملية النقل هذه تشبه الاستعراض الكبير ، فعربات الاسعاف هي المعدة والستائر تخفق على النوافذ الصغيرة ، ثم أغطية الاسرة محمولة على النقالات الحديثة التي تشبه الأراجيح .

وعندما وصل تشستي وكلبه الى الميدان كان الظلام يهبط على المكان فقد غربت الشمس . ولم يعد الباقون في قمصانهم الرمادية وقبعاتهم البيضاء ينظرون من النوافذ الكبيرة ليحملقوا في أحد في الكنيسة المواجهة التي كانت تطل من بين مجموعة من البيوت الحربة المهدمة والاشجار العليلة المتناثرة هنا وهناك .

وتوقف تشستي وهو متردد . واحد يبحث عن شيء يستند اليه فقد غدرت قدماه به عن حمله . وكان يحمل مرارة وألما وشعورا بالعجز . وكان يحس أشياء كثيرة لا يستطيع أن يتبينها . فهناك امه . كيف تعيش وعلى أي شيء تعيش ؟ فهي لم تكن تخرج أبدا الى البيت . وقد أصرت على أن تبعث به الى تلك المدرسة . تلك المدرسة اللعينة التي تقع على مسافة بعيدة . وعليه كل يوم أن يجري فترة نصف ساعة على الاقل حتى يصل في الموعد . ثم يعود في الظهيرة لكي يرجع الى المدرسة بعد أن يلتهم بعض الطعام . وكانت امه دائما ما تقول انه كسول يضيع وقته يلعب مع الكلب . وكانت دائما ماتؤنبه وتوبخه ، فهو لا يستذكر دروسه . وهو قذر . كما ان الناس تهشه عندما تبعث به امه ليشتري شيئا ، كذلك فهو يحضر الطعام غير الطازج .

والآن أين الكلب ؟

انه هناك .. هذا الكلب التعس . ينتظر في صمت أن يجد سيده أمرا . وعلى أية حال فالكلب يعرف مايراد منه اتبع سعدك .. وكان تشستي يريد أن يفعل شيئا ، ولكن كانت هناك دائما نفس المشكلة .. فهو لم يكن يعرف ماذا يفعل . وكان يمكن لوالدته أن تعطيه

[illegible] بالنهار في بعض البيوت ، فهذا هو عملها كما قالت له ، ولكن لم يحدث ذلك . فقد قالت انها لا تأتيه ، واذا رجع من المدرسة قبل عودتها فعليه أن ينتظر فهي لن تتأخر كثيرا . ولكن أين ينتظر ؟ أمام الباب ؟ لقد اضطر في بعض الاحيان أن ينتظر ساعتين في البرد الشديد بل في المطر المنهمر وحينئذ ـ وبدلا من ان يبحث عن مكان يتقي فيه هذا المطر ، كان يذهب الى الركن ويقف تحت الميزاب حتى يبلل جسمه . واخيرا تظهر امه وهي تلهث ، حاملة مظلة استعارتها من احد البيوت، وعيناها متقدتان وهي في حالة عصبية شديدة وهي تبحث عن المفتاح في كيس النقود .

ويسمعها تقول ، انك مبتل ، اصبر قليلا .. لقد أحرقني ، .

وقطب تشنشي وهو يسير الى أعلى التل . وكانت تدور في عقله أشياء لا يريد ان يفكر فيها والده مثلا .. فهو لا يعرف والده أبدا . وعندما كان صغيرا قيل له ان والده قد مات قبل أن يولد هو . ولكن أحدا لم يقل له من يكون والده هذا ؟ وهو الآن لا يهتم بأن يسأل عن والده أو يأبه لذلك ، فقد يكون ذلك الكسيح الذي شلت يمينه هناك . والذي يحاول أن يجر نفسه الى حجرة الجلوس . في تلك اللحظة ذهب اليه الكلب «فوكس» ونبح . لقد كان فوكس هو السند الذي لا يحيد .

ورأى في مخيلته نساء كثيرات يجلسن في دائرة ، كروشهن تتشكور امامهن ولكنهن لسن بالحيالى ـ ربما كانت واحدة منهن حبلى ـ تلك التي يرتفع طرف ثوبها امامها ويحرجر على

[illegible] في الارض يراقبها [illegible] في فصله الاخرين ، هي تحمل طفلا بين ذراعيها وينتهي بقدميه عند بطونها ، يا لها من كتلة من اللحم .

لقد كانت أمه جميلة ، وهي ما تزال شابة ونحيفة ، وقد ارضعته وهدهدته على صدرها عندما كان صغيرا . ربما في بيت في الريف ، أو في العراء تحت الشمس أو على قطعة من الارض تجري فيها عملية درس الحبوب . انه لا يكاد يتذكر له بيتا في الريف عندما كان صغيرا ، هذا اذا لم يكن قد حلم به او رآه في مكان آخر . من يعلم ؟ وعندما قدم المساء واشعلت مصابيح الزيت ، استطاع أن يستشعر ظلالا تلقي عتمتها على تلك البيوت بينما تنتقل المصابيح من حجرة الى أخرى ، ويدخل الضوء في احدى النوافذ ليظهر من جديد في نافذة أخرى .

وفيما وراء الميدان كان الطريق يصعد الى جانب أحد التلال ثم يواصل سيره حتى الريف . وتطلع تشنشي الى أعلى ورأى رقعة الفضاء الواسعة . وكانت الاشعاعات الاخيرة للشمس الغاربة قد اختفت ، وفوق التل المظلم كانت ترتفع السماء الزرقاء . وسقطت ظلال المساء على الأرض فاخفت الوهج الأبيض لجدران المستشفى .

ورأى تشنشي سيدة عجوزا تسرع الخطى نحو الكنيسة الصغيرة حتى تؤدي صلاة الليل . وقرر الصبي على الفور أن يدخل أيضا ، وتوقف فوكس وهو يتطلع الى صاحبه ، ذلك لأنه يعرف تماما أنه لا يمكن ان يدخل الكنيسة . وكانت السيدة العجوز ، التي كانت تأخرت عن الموعد ، تلهث عند مدخل الكنيسة وتتكلم بصوت متقطع وهي تحاهد كي ترتفع الستار الجلدية الثقيلة . ولكن

تشيشي اراحها بابة عنها ، ورأها تقطب جبينها بدلا من أن تشكره . فقد شعرت انه لم يأت الى هنا للصلاة . وكان الجو باردا في هذه الكنيسة الصغيرة كما لو أنها كهف . وعلى المذبح كانت هناك شمعتان تحترقان وهنا تتذبذبان . وهنا وهناك كانت قليل من الصلبان المتفرقة تتساقط . وكنت تحس اترية العصور الطويلة في تلك الرطوبة التي يشبع بها المكان . وكانت الأصداء تتمثل في هذا الصمت الكئيب على استعداد لأن تعلو عند أقل ضوضاء . ووقفت كل سيدة في مكانها المعتاد . وشعر تشيشي بأنه يريد أن يحدث صوتا أو يصرخ حتى يحملهن يقفزن ويهربن . ولكن لا داعي للصراخ . مادا لو القى بكتلته الثقيلة على الأرض كما لو أن ذلك قد حدث عفوا ! لم لا ؟ وترك الكتب تسقط على الأرض . وانطلقت الأصداء كالرعد تحطم كل شيء حوله ، وشعر بمتعة وسعادة . وكثيرا ما حاول تشيشي هذه التجربة . والآن لا ضرورة من اقلاق هؤلاء المتعبدات اللاتي تقدمت بهن السن . وخرج من الكنيسة ووجد فوكس مستعدا لأن يتبعه في الطريق الى أعلى التل . وود لو قضم ثمرة فاكهة ، وقصر على حائط واطيء ليتحسس طريقه بين الأشجار المظلمة . ولكنه لم يكن على يقين فيما اذا كان هذا الدافع قد استقر في ذهنه نتيجة الجوع أم لمجرد أن يعمل شيئا فحسب .

وكان الطريق المنحدر حالما من المارة ، ومليء بالأحجار الصغيرة التي كسرتها حوافر الحمير ، وتركتها تتدحرج الواحدة وراء الأخرى . وركل تشيشي حجرا في الهواء بمقدمة حذائه . وكانت المنحدرات على الجانبين مغطاة بأعواد الشوفان الطويلة الخضراء وهي لديدة أن يمضغها وهو سائر . وكانت الأعواد الصغيرة تتيبق وتشاسك معا حتى لتبدو مثل الباقة . واذا انقبت على أحد هذه السنابل التي تعلق به تؤكد على انها عدد الزوجات أو الأزواج في المستعمل وحاول تشيشي أن يجرب هذه اللعبة على فوكس . سبع زوجات لا أقل من ذلك . ولكن حدث أن التصقت كل السنابل بشعر فوكس . ووقف فوكس وعيناه مغلقتان . وهو لا يعلم شيئا عن هذه اللعبة أو عن الزوجات السبع فوق ظهره .

وشعر تشيشي بأنه لا يريد أن يمضي الى أبعد من ذلك . فقد كان الضيق والضجر يعملان في نفسه كما حدث قبل ذلك . ومضى الى يسار الطريق ، وجلس على الجدار . ومن مكانه هذا أخذ يتطلع الى القمر الجديد . وقد بدا لونه الذهبي الشاحب يلمع في حضرة السماء الباهتة . ورآه ولم يره مثل تلك الأشياء التي نروح وتجيء في العقل . الواحدة مع الأخرى ثم تبتعد جميعا بعيدا عن جسمه الصغير الذي يجلس هادئا حتى لم يعد يدري به . ولو أنه وضع يده على ركبته أو على قدمه المدلاة في حذائه القديم القذر لبدت له كشيء غريب عنه . انه لم يعد في جسمه ، فقد اندمج بالأشياء التي رآها والتي لم يرها . السماء المظلمة والقمر الساطع وتلك المجموعة من الأشجار التي تسمق في الهواء الرقيق ، والأرض السوداء التي تم حرثها حديثا ، والتي مازالت تخرج رائحة العفن الذي نتج عن رطوبة هذه الأيام المتعمة الأخيرة من شهر أكتوبر .

وفجأة ، وربما هو منهمك فيه هو فيه ، شعر بذعر ودهول ، وبحركة

غريزيه رفع يديه الى اذنيه . فقد سمع ضحكة قصيرة عالية من تحت الجدار ، كان هناك غلام في مثل سنه يحتمي الى جانب الجدار الذي يناهم العقبول وكان قد انتزع عودا من الشوفان أيضا واخذ يتتزع سنابله . ورفع يده وهو ممسك بعقده ليطلق بها على اذن تشيشي . وما أن اصطدم تشيشي حتى أشار اليه الغلام أن يهدأ ثم حرك عود الشوفان على الجدار تجاه رأس سحليه صغيرة كانت تنظر خلسة من بين الأحجار . وكان هذا الصبي يحاول أن يصيدها واستمر يحاول ذلك ساعة كاملة . ونظر تشيشي في شغف يراقب مايحدث . وادخلت السحلية رأسها - دون ان تدري - في الأشوطه. ولكن ليس بالقدر الذي يستطيع به الصبي أن يصيدها ، كان يجب أن تدخل راسها أكثر قليلا ، واذا ارتعشت اليد التي تمسك بالأشوطه وانزعجت السحلية فانها سوف تهرب .. نعم .. نعم . ولكن يجب الانتظار .. وعليه أن يكون مستعدا لأن يشد الأشوطه في الوقت المناسب . وهذا العمل كله لا يستغرق ثانية . وفجأة أطبق على السحلية التي كانت تلمع كالسمكة في نهاية الأشوطة الطويلة .

ونزل تشيشي في لهفة من فوق الجدار ، ولكن الصلام الآخر ، وهو يمسك بالأشوطة خوفا من أن يأخذ تشيشي منه السحلية ، دار بذراعه في الهواء عدة دورات ثم هبط بالسحلية الى الأرض على حجر صلب كبير كان يرقد بين الأعشاب .

وصاح تشيشي لا .. لا تقتلها .. ولكن بعد فوات الأوان ..

ورقدت السحلية بلا حراك على الحجر، وكانت بطنها البيضاء تلمع في الضوء، وعصب تشيشي .. كان هو أيضا يريد أن يرى السحلية وهي تصاد ؛ تدفعه الى ذلك غريزة الصياد الكامنة في أعماقنا جميعا ، ولكن القتل على هذا النحو دون أن يتطلع في دقة الى هذه العيون الصغيرة والأرجل المختلجة ، وهذه الرعشة التي تسري في جسمها الأخضر كله ، عمل مخجل حقا . ومضى تشيشي الى العلام وضربه في صدره بكل قوته حتى جعله يستلقي على الارض . ولكن العلام نهض مرة أخرى وهو يتمتم غيظا وغضبا وامسك بحفنة من التراب من أقرب حفرة ، وألقى بها في وجه تشيشي وأعماه . وصاح تشيشي وطاير شررا بسبب طعم التراب في فمه ، وامسك بقطعة من الطوب وألقى بها في وجه الطفل واشتعلت المعركة . وكان العلام أكثر سرعة وبصوب في احكام ودقة ، ولم يكن يخطيء الهدف ؛ وأخذ يقترب شيئا فشيئا ، ويلقي بهذه الصواريخ من التراب التي لا تجرح ولكن ترتطم بقوة في صدر تشيشي وتسقط كالبرد على وجهه وشعره وأذنيه وحتى في حذائه . وصاح تشيشي ذرعا اذ وجد أنه عاجز وأنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ؛ فوثب وهوا يرفع يده ليمسك بحجر من الحدار ؛ ووجد شيئا يتحركه ؛ هو هو فوكس ؟ .. وقذف بالحجر — ونجاة لم يعد هناك شيء يتحرك — مجموعة الأشجار والقمر الهلال الصغير — بعد أن كان كل شيء يدور — وبدا كما لو أن الوقت قد توقف في دهول غريب عند رؤية العلام وهو ممدد على الارض فاقد الحياة .

وأخذ تشيشي ، وهو مايزال يلهث والذعر يجتاحه وهو يرتكن الى الجدار في هدوء الريف في ظلال ضوء القمر ؛ يبذل الجهد ويغالب وهو في حالة من الوحدة الأبدية يريد أن يهرب منها انه لم يعمل ذلك ؛ ولم يكن يريد ذلك ، ولا يعرف شيئا عن ذلك . وحينئذ سار خطوة ثم اثنتين ونظر الى الأرض كأنه شخص آخر يقترب رغبة في التكشف وحب الاستطلاع . وكان رأس العلام مدل الى الارض والدماء ما تزال تتدفق من فمه الغاغر . وكان هناك جزء ظاهر من ساقه وبين حوافره وبين سطلونه القصير . كان كل شيء كحلم وكانت السحلية ترقد ساكنة على الحجر وبطنها الى أعلى والاشعة حول رقبتها . وقال تشيشي لنفسه ان عليه أن يستيقظ ويمضي بعيدا . وعلى الفور قفز على الجدار وجمع كلبه وسار بقدمه كلبه كالمعتاد .

وفي الطريق الى أسفل التل ، ازدادت ثقة تشيشي بعد أن اتسعت المسافة بينه وبين المكان الذي كان فيه ، ومن ثم لم يعد يسرع الخطى . ووصل الى الميدان الخالي . وكان القمر يسقط أشعته هنا ايضا . ولكنه كان قمرا آخر لا يأبه به وكان يلقي ضوءه على الواجهة البيضاء للمستشفى .

والآن يعود على نفس الطريق الى المنزل الذي لابد وان أمه لم تصل اليه بعد كالمعتاد . ولا داعي لأن يقول شيئا عن حوادثه ، سوف يقول انه انتظر هنا وأصبح هذا التفسير — الذي سيكون حقيقة بالنسبة لأمه — حقيقة بالنسبة له أيضا . ووقف يرتكن بكتفيه الى الجدار بجوار الباب كما كان من قبل .

ويكفي أنه يوجد هنا في هذا المكان بسلام ..